

ما رأي المجامع والمختصين في مزج الضاد بالظاء ؟ !

بقلم : محمد شيت صالح الحياوي

علي اللغة ألقاظاً وكلمات ومعاني، الأمر الذي سأوضحه فيما هو آت :

(1) مخرجه ونطقه : — يقول (ج) (فوضع علماء العربية لعلاج هذا الصوت الرسائل والكتب ونظموا المتون من القرن الثالث إلى يوم الناس هذا... ومن هؤلاء العلماء ابن غانم المقدسي... في كتابه — بغية المرتاد لتصحيح الضاد — ... وخلص إلى أن الضاد المنطوقة في عصره هي غير الضاد العربية القديمة). وأكد (ش) هذه الحقيقة فيما نقله عن الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه — الأصوات اللغوية — وفيما نقله عن الجاحظ بقوله (إن نطق الضاد كان يتم بالصاق سطح مقدم اللسان بين الثاب والضرس العلويين الأيمنين لا كما نعمل الآن بوضعه تحت القواطع العليا).

وأكدما آخرون منهم الأستاذ المرحوم طه الراوي في كراسة مخطوطة بقوله (فإن الضاد تخرج من طرف اللسان مستطيلة إلى مائلي الأضراس من الجانب الأيسر — وهو أيسر وأكثر — أو من الجانب

هناك بحوث كثيرة قديماً وحديثاً في الفرق بين حرفي الضاد والظاء صوتاً وخطاً. وآخر ما طالعته بخنان مهمان لدكتورين فاضلين هما عبد الله الجبوري (ج) في مجلة (الضاد) العراقية بعنوان (بغية المرتاد لتصحيح الضاد) شباط 1988 / وكامل مصطفى الشبيبي (ش) في جريدة (العراق) بعنوان (العربية أهي لغة الضاد أم لغة الظاء ؟) 23 - 2 - 1988 حيث عرضا معلومات عززت فكري. هذه الفكرة التي طالما قلبتها ومحصتها حتى تأكدت من صحتها وصلاحتها، فحواها أن حرف الضاد في حقيقته هو لغز محير ولكنه قابل للحل وفي الامكان علاجه والتخلص من مشكلاته. ذلك أننا إذا استعرضنا تاريخ هذا الحرف وتطور أحواله وما قيل فيه وعنه فسنصل إلى نتيجة تدل على أن صوت هذا الحرف إما أن يكون معقداً بعيداً عن الأصوات الطبيعية التي يستطيع الانسان أن ينطق بها وإما أن يكون صوتاً ضائعا أو مجهولاً ملتبساً بغيره. وفي جميع هذه الحالات لا يعد — في رأيي — حرفاً بل شبحاً لحرف مفقود، أرى إلغاءه خيراً من بقاءه إذا لم يؤثر حذفه

الأيمن — على قلة — وهي منفردة بهذا المخرج لا يشاركها فيه حرف ما).

وهناك تفصيلات كثيرة واختلافات واسعة في الحديث عن مخرج الضاد ليس لها فائدة عملية مطلقاً، ولذلك لا أرى ضرورة لهذه الأعمال العضوية الصعبة والأشغال اللسانية الشاقة التي لن تكون محصلتها إلا الأرهاق أو العجز أو الاستحالة.

(2) إبداله والاختلاف فيه : — يقول (ج) (لقد لس المؤلف في القاهرة نطق الضاد دالاً وأرى أن تنفسي هذه الظاهرة أمر خارج عن السنن عند العرب الصرحاء... ونطق الضاد دالاً مفخمة أو طاء ظاهرة عرفتها العربية قديماً في بعض لهجاتها وهي الآن مستعملة عند المصريين وأهل المغرب... ومنهم من يخرجها لأمأ مفخمة وهم الزيالع ومن ضاهاهم.) أقول في بعض الأنحاء من اليمن والسودان. ويؤيد (ش) هذه الظاهرة أيضاً في كتاب — العاقل الحالي — لصفي الدين الجلي، وزاد في قلب الضاد زايا مفخمة فيمن قرأ — ولا الضالين : ولا الزالين.

(3) إبدال الضاد ظاء : — يقول (ج) : (ذكر المقدسي في الفصل الأول خبر تطور الضاد ظاء وعززه في الفصل الثاني وأن التلفظ بالضاد شبيهة بالطاء هو الصحيح وهو المنقول عن كلام العلماء... دعم مذهبه فيما يدل بالمعقول على أن اللفظ بالضاد كالطاء المعجمة .. إلى أن أهل مكة المكرمة وهي منشأ النبي سيد العرب وما والاها من بلاد الحجاز إنما ينطقون بالضاد شبيهة بالطاء المعجمة).

(إن هذا الحرف ليس في الحروف حرف يعسر على اللسان غيره، والناس يتفاضلون فيه فمنهم من يجعله ظاء مطلقاً وهم أهل الشام وبعض أهل المشرق... إن الضاد شبيهة بالطاء وقرية منها كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج بحيث يخفى الفرق على المجيدين لفن التجويد فإنها حينئذ تكون حرفاً خارجاً عن الحروف

العربية المستعملة.) (وإن من قرأ في صلاته الضاد ظاء أو ذالاً في آية — غير المغضوب عليهم ولا الضالين — لا تفسد ومن قرأ بالذال تفسد... وتوجيه قراءة من قرأ — ولا الضالين — بالذال أو بالطاء إن الضاد هو قسم الذال المفخمة والطاء قسم آخر للضاد.)

وزاد (ش) قولاً فيما نقله عن الجاحظ في البيان والتبيين عن صعوبة التفريق بين صوتي الضاد والطاء في كلمة ظمياء — ضمياء مثلاً وفيما رواه عن السيوطي في المزهر في كلمتي ظحى وضمي — ضحى وظمي.

وجاء في كرامة الراوي مارة الذكر (يعسر على كثير من حملة الأقلام التفريق بين هذين الحرفين لفظاً وخطاً فنجد الجم الغفير من الناس يلفظون الضاد من مخرج الطاء، على أن الانحراف على السراط السوي في هذا الشأن داء قديم وذلك لأن الضاد أصعب الحروف مخرجاً وقد أدى النطق بها إلى الخطأ في كتابتها).

مما تقدم يظهر الحل واضحاً للتخلص من هذه المعضلة التاريخية أي التفريق بين الضاد والطاء لفظاً فخطأً ذلك التفريق الذي كان ولا يزال مدعاة للاختلاف والمتاعب والصداق !.

الحل الذي لا بد منه ولا حل سواه هو إلغاء حرف الضاد والاستعاضة عنه بحرف الطاء أي مزج الضاد بالطاء ليصيرا حرفاً واحداً، والحروف سبعة وعشرين ؛ إن الاختلاف بيني وبين (ش) هو أنه يقدم الطاء ليكون أولاً ويفضله على الضاد ليكون ثانياً فالغاية من بحثه وشرحه تقتصر على اختيار الدرجة الأولى والعنوان الأصح كما سئري. أما أنا فأريد إلغاء الضاد وحذفه من الحروف الهجائية والاكتفاء بالطاء لكليهما استقواء بشواهد عديد من الباحثين في علوم العربية والأصوات والأقراء

والتجويد كما رأينا نص المقدسي في الفقرة الثالثة التي سلفت حيث قال : (كونها — أي الضاد — مزوجة بها — أي بالطاء... فإنها تكون حرفاً خارجاً عن الحروف العربية المستعملة).

واستبصاراً بقول (ش): فإذا كانت الضاد على هذه الصورة من التغيير ولم يشر إليها قديماً وليس على صعوبتها دليل ولا يراعى نطقها الأصلي الآن فأى داع غير السماع المتأخر يدعوننا إلى تملكها على اللغة العربية وتجنيد العرب تحت لوائها أليس الأجدر والأجدى أن نبحث عن حرف آخر يستحق تيوماً (تبوؤ) هذا المقعد وبعد أعمال الفكر... رأينا أن الطاء أجدر).

فاستناداً إلى ما سبق بيانه وشرحه وتفصيله أقول : إن الضاد من الناحية العملية ليس لها اليوم غير نطق أصلي واحد جارٍ على الألسنة هو صوت الطاء نفسه فتملكها على اللغة وتجنيد العرب تحت لوائها هو في الواقع تملك الطاء بتعبير آخر ولذا فلسنا في حاجة إلى أعمال الفكر والبحث عن حرف هو في فعنا وبين أسناتنا ! كنا نتمنى إلغاء الطاء وإبقاء الضاد لكليهما كما يفعل عرب المغرب الآن لأن الضاد أشهر والكلمات التي تكتب بها أكثر حيث أكد (ش) قلة الكلمات الظائية وأتعب نفسه بمراجعة المعجمات ودواوين الشعراء لا لتكون حجة لتفضيل الضاد — كما هو متوقع — بل على العكس لتفضيل الطاء الأمر الذي سناخذ به ولكن بأدلة أخرى ! وزيادة في المعلومات فإن مجموع ما ورد في القرآن الكريم 866 طاء تكررت في 29 مادة برقم وجدناه في تلك الكراسة و لانزال نتطلع إلى من يفيدنا بعدد الضادات التي جاءت في القرآن الكريم أيضاً موازنة بين العددين. وعلى كل حال فما القلة والكثرة إلا سبب ظاهري سرعان ما يترك ولا يعتمد عليه إذا قورن بأسباب جذرية عملية هي الآتية :

١ — الاختلاف في نطق الضاد اختلافاً كبيراً

عند أبناء الأمة الواحدة في مختلف الأزمنة والبقاع حيث وجدنا من يلفظه دالاً مفخمة أو مرققة أو طاء أو يلفظه زايماً أو لاماً مفخمتين أو طاء وربما غير ذلك بينما لا يلفظ الطاء إلا بصوت واحد هو الغالب الجاري على الألسنة في معظم البلدان العربية، وربما وجدنا قلة تلفظ الطاء زايماً مفخمة اقتداءً بغير العرب.

ب — تلفظ الضاد طاء قراءة أو تجويداً أمر معمول به من الناحية الدينية والشرعية ولا يقبل غيره من الجروف كما ذكرنا سابقاً.

ج — بسهولة يمكن تحويل كتابة الضاد إلى طاء وذلك بانزال عمود على الضاد بينما إذا أردنا تحويل الطاء إلى ضاد فسنضطر إلى شطب العمود النازل عليها أو حكه الأمر الذي يشوه منظر الكلمة ويفسد الخط كهذه الصور :

ضاد طاء ضاد
(ض) ← (ظ) (ظ) ← (ظ).

العربية لغة الضاد : — هذه مسألة مهمة لا بد من توضيحها ومعالجتها فيما نحن عاكفون على توحيد الحرفين حيث يقول (ج) : (شاعت عند أهل العربية قديماً وحديثاً والتي ربما كانت معروفة في القرن الثالث أو في مطالعه عند العلماء، وقد تلقفها شاعر العربية المخيد أبو الطيب المتنبي حيث قال :

وهم فخر كل من نطق الضا

د وعود الجاني وغوث الطريد.

وأداره كل من عرض لهذا القول — العربية لغة الضاد — في بحثه ومنهم ابن غانم المقدسي فجاء به شاهداً على أن الضاد خاص بالعربية).

أقول : كل الآخذين هذا القول لفظاً أو معنى قديماً وحديثاً والذين ذكر معظمهم وفصل الحديث عنهم (ش) هم في الحقيقة عيال على المتنبي تابعين

ومقتدين لأنه أقدم منهم (كمهيار وشوقي وصالح الجعفري وعبود الكرخي وكبير ذنر ومحرم الضاد من الموسوعة العربية الميسرة ومجلتي الضاد الحلبية والضاد العراقية). وزاد (ش) فقال (من هذا التابع يبدو كون العربية لغة الضاد والعرب الناطقين بها وحدهم أمر لم يعرف قديماً... فلعل المتنبّي هو الذي اخترع هذا المعنى استناداً إلى ما لعله طرق سمعه من صعوبة نطق الأعاجم بهذا الحرف). وخلص إلى القول: (فاذا كان الأمر على هذه الصورة فإن خصائص الظاء النادرة تجعل منها شعاراً للعربية وراية تعلق ساريتها وبهذا نستطيع أن ننادي بصوت عربي فصيح ندى — العربية لغة الظاء — لا الضاد). وعند هذا الحد لا يسعني إلا مناقشة العالمين الباحثين معتمداً على ما سبق بيانه من أن أهل مكة وما والاها من بلاد الحجاز وأهل الشام وبعض أهل المشرق والعراقيين وربما غيرهم من البلدان العربية إنما ينطقون الضاد كالظاء المعجمة. وهل نسي (ش) قوله: (فلنتظر في شجون هذا الحرف — يعني الظاء — الذي يوحد العراقيين مع الضاد ويلغون هذا الأخير من النطق ويقون عليه في الخط).

أقول: ما قيمة الخط وما فائدته والرسمان هما لصوت واحد؟ فإذا قال المتنبّي: وبهم فخر كل من نطق الضاد أو قال كل من نطق الظاء فليس ثمة فرق بين التعبيرين لأن اللفظ واحد والمعنى واحد ولأن الحرفين هما في الحقيقة والواقع حرف واحد جارٍ على ألسنة العراقيين بمن فيهم المتنبّي ذلك العراقي الصميم!، لم يتلقف شيئاً جديداً لأن وحدة الحرفين وامتزاجهما صوتاً ولفظاً قديمة وليست بدايتها في القرن الثالث كما لم يخترع معنى استرشاداً بأعجمي. ومن جاري المتنبّي فقد جراه بوحدة الضاد والظاء أي بلفظ واحد يمثله في الكتابة والخط رسمان. فإذا خشينا الالتباس في وحدة الحرفين صوتاً لا في تلفظ المتنبّي ومن قلده بخاصة بل فيمن ينطق الضاد بعامّة

فإن تسمية اللفظ المشترك بينهما (ظاداً) لا ضاداً ولا ظاء كقيلة لإزالة ذلك الالتباس إبقاءً على ما قيل من جهة وتثبيتاً لنطق الحرف موحداً من جهة أخرى. وبذلك يجوز أن نكتب قول المتنبّي هكذا (وبهم فخر كل من نطق الظاد!). وأن نكتب ما أورده (ش) عن الخليل هكذا (والظاد عربية لم تعط أحد من العجم) وما أورده عن ابن جني والقلقشندي هكذا (كون الظاد حرفاً تنفرد به لغتنا عن سائر اللغات) محافظين بهذه التسمية الجديدة على مزج الحرفين وموسعين المعنى المقصود في آن واحد.

إن كتابة جميع الكلمات الضادية بالظاء سيحل لنا مشكلة تاريخية ويعفينا من الاختلاف ويجمعنا على نطق واحد ناجين ممن يلفظ الضاد دالاً أو ظاءً أو زايماً أو لاماً... الخ ومع ذلك فإذا أخطأ البعض فإن خطأه حيثئذ في تلفظ الظاد الموحدة سيكون على كل حال أهون وأقل من الخطأ في الرسمين. ولهذا الاجراء الثوروي، إذا جاز التعبير، آثار ومضاعفات لا بد من توضيحها وتسويتها ولا سيما علاقته بالتراث والثقافة في المخطوطات والمطبوعات والمكتوبات قديماً وحديثاً. ومن حسن الحظ فالتدبير سهل والعلاج بسيط وذلك بتنبية المبتدئين والمتعلمين وإفهامهم: أن العرب فيما مضى كانت تكتب حرف (الظاد) بصورتين هكذا (ض ظ) وإنا اليوم إذا طبعنا مخطوطاً أو أعدنا طباعة مطبوع فإما أن نكتب (ظاده) بصورته القديمة (ض) أو ننزل عموداً على قاعدته ليصير ظاداً (ظ) بصورته الجديدة.

وتطبيقاً لما شرحناه فسنختار بعض الكلمات التي ترد في المعاجم بلفظ واحد ذي رسمين. كل رسم منهما لمعنى كالآتي:

— البيض — من الحيوانات لا سيما الطيور
— البيظ — بيض الثمل.

— ضن — بخل و — ظن — رجح.

ومراجعته. ولن تصير كتابة الضاد ظاء أبعد من كتابة الصلاة — الصلوة وأنزلناه — أنزلته وادراك — ادريك والملائكة — الملائكة وغيرها من الكلمات.

لقد تطور الخط العربي وتحسنت حروفه وارتقت الكتابة بمرور الأزمان والأجيال فقد كانت غير واضحة تتشابه فيها الحروف ويلتبس بعضها ببعض ثم اتضحت وتكاملت تدريجاً. وكانت غير مشكولة فصارت مشكولة وكانت حروفها مهملة فصار بعضها معجماً ودخلها افتتان وتزيين على أيدي الكاتيب والخطاطين، فلماذا لا نستمر في تطويرها سراً نحو الكمال مبتدئين مزحلة جديدة كي نجاري العصر عصر التيسير والسرعة والتوحيد؟!

وفي الختام إليكم ملخص البحث في النقاط التالية :

(1) يلغى رسم الضاد ويرسم ظاء توحيداً لكتابتهما ولفظهما.

(2) يسمى الحرف الموحد (ظاداً) كي تدل التسمية الجديدة على اشتراك الحرفين وعلى العلاقة القديمة بينهما.

(3) تسمى (أمة الظاد) و(لغة الظاد) تصديقاً لشاعر العربية الأكبر ومن اقتدى به من جهة وتبيننا لأهمية صوت الظاء أيضاً من جهة أخرى.

ملحوظة : — لا ينفذ ما جاء في اقتراحي هذا من اجتهادات وتعليمات ولا يعمل بها إلا إذا أقر بالاجماع من جهات رسمية مختصة.

وليكن معلوماً أنني لست مخرباً ولا مفسداً في دعوتي هذه بل أنا مجتهد مصلح لا يهمني سوى خدمة عربيتي وعروبتى. ولى رجاء ممن يقبل فكري أو يرفضها أن يعزز رأيه بالحجج والبراهين العقلية والنقلية بعيداً عن الأمور الذاتية والتأثرات العاطفية. فما رأيكم — دام فضلكم — وماذا تقولون؟؟

— التقريض — صناعة القريض و — التقريظ — المدح.

— حضر — ضد غاب و — حظر — منع.

— الظهر — أعلى الجبل ومنه ظهر البيدر وظهر القضيبي وظهر الصوان وهي أسماء لمواقع في لبنان و — الظهر — مصدر، ما يقابل البطن، ما غلظ من الأرض.

— الضاهر — الوادي، أعلى الجبل و — ظاهر البلد — خارجه.

— ظهور الشوير — مصطفى في لبنان و — ظهور — بروز بعد خفاء، جمع ظهر.

ومن الغريب العجيب أننا نجد في المعجم (فاض) و(فاظ) بلفظ واحد ومعنى واحد هو (مات) ولكنهما برسمين. فلنكتف بذي الظاء لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين!. وسنوحده هذه الكلمات المعجمية في كتابتنا الجديدة. ونكتبها بالظاء للمعنيين كما نكتب سائر الكلمات ذوات المعنى الواحد هكذا :

(البيظ) من الحيوانات لا سيما الطيور والنمل.

(ظن) بخل، رجح

... الخ.

يقيت العلاقة بين كتابتنا الجديدة وخط المصحف، فإن القرآن الكريم وإن كان أعز كتاب لدينا ولكننا لا نقلد خطه ولا نتبع رسمه في كتاباتنا لأننا نرى أهميته وقديسيته في ألفاظه ومعانيه التي نزلت وحياً. فهي عندنا بالدرجة الأولى أما كتابته التي ندعوها خط المصحف ففي الدرجة الثانية، مع العلم أنه ليس هناك فرق كبير أو اختلاف شديد بين الكتابتين يحول بيننا وبين قراءة القرآن ومطالعته